ابن زيدون

- ٢ -

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها — كانت طريقة كتابة الاندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال الصاحب بن عباد والبديع والخوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصفهاني . وكان الكاتب الاندلسي الذي ينسج على منوالها وان حل المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لا يغلب ذلك على قوله فنفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعة والتعليلات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً .

وابن زيدون راعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فاما ماراعاه في كتابته منها فهو :

١ — حل المنظوم من مشهور الابيات .

٢ — الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الابيات مستعملاً لها استعمال الأمثال فلا ينسبها الى قائلها .

٣ — الاقتباس من القرآن الكريم او الحديث بلفظها او تغيير بعض نظمها .

٤ — تضمين الحكم والأمثال بلفظ اصحابها او بتغيير في نظمها .

واما ماخالف فيه فهو :

١ — عدم التزام السجع .

٢ — الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يعد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الامثال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ — الاستكثار جداً من ذكر اسماء رجال التاريخ المشهورين .

٤ — الاستكثار جداً من اسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ .

٥ — الاستكثار من الجمل المترادفة المنسوجة على مثل واحد في المعنى الواحد حتى يتكون منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة بحيث لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكررة في المعنى الواحد لنزلت الرسالة الى خمسها او سدسها .

وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهي على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولا سيما الهزلية .

(ب) منزلته فيها — اشتهر ابن زبدون عند المغاربة والمشارقة بانه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فاما الشعر فلا جدال في استحقاقه فيه منزلة عليا ، واما الكتابة فلا ستحقاقه ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حد بلاغة الكتابة في ذاتها الى امور خارجة عن جوهر الاجادة وذلك ان كتابته اشتهرت بين الناس لامرين :

اولاً — انها ليست على منوال كتابة الاندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور . وصدور العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لافت بذاته للانظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر عن ذي شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق وجاه عريض وصيت ذائع في السياسة والادب والشعر وحسن المحاضرة والمنادمة .

وثانياً — انها باهرة لانبعاثها وروعة أساليبها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع واسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، ويشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، اذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بمأثور الاقوال ، معرفة بكثير من حوادث التاريخ واسماء الابطال ، بحيث اذا حفظ ناشئ متأدب رسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكأن شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمتن من متون العلم كثير المسائل والأحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كمقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون في رثاء دولة بني الافطس ونونية الرندي ولامية ابن الوردي ونونية البستي ونحوها وكلها عظيمة الاثر في التعليم والتأديب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لداعيها ، وتقبل على قائلها . ولذلك تجد رسالة ابن زيدون الجدية التي استعطف بها جمهوراً لم تؤد ماوضعت له .

ولا نعني بكلامنا هذا ان الرجل كان قليل الخاطر ، اوضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر اخباره يصفه بقوة العارضة وسرعة البديهة والارتجال ، وانه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ويحاضر بالنكت النادرة والاجوبة المسكتة . ودفن بعض حرمه فوقف للناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب احداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لا تدرك .

وانما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً واضطرته الوزارة الى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر اشبه منها بالنثر . واكثر المغاربة لا يتحدثون الا في شعره على عكس المشارقة .

* * *

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وابلغها ، واكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوع فصولها وتعدد الاغراض التي رمت اليها ، والمعاني التي لوّحت بها ، على ما أفاننه من أمل كانبها ، وماحُرمته من روعة التأثير في النفس .

وهذه الرسالة بعث بها من السجن الى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستفظاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التي وصفناها آنفاً .

واذا حللنا هذه الرسالة الى عناصر الاغراض التي تألفت منها وجدنا انها لا تعدو عشرة أغراض تؤدي في عشرة أسطر الا ان كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت في ذرعها طولاً .

وذلك انه ناداه بالفاظ السيادة اولاً ، ثم اعتذر له عن نكبته اياه بعدما احس الجماد بله الانسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بان عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، واول هذه المقابلة بانها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم اخذ يستريث العفو ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يستفظع هذا العقاب الذي كان بعضه كافياً لردع الأبالسة ، وكبار الفتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع ان المسألة لاتخرج عن وشاية حساد سمع جوهر لهم فنكى وليه الذي نوّه بذكره . ثم اخذه الزهو فذكر انه كان في مكنته ان يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير انه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده العتبي حتى توقع الفكاك . ثم استملح نثر هذه الرسالة ورأى ان يستلحقها بقصيدة فكانت هذه في رأينا آنق لفظاً واعذب مورداً واطبع اتساقاً .

وهاك الرسالة :

الرسالة الجدية لابن زيدون

« كتبها لابن جهور »

يا ولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، ومن ابقاه الله تعالى ماضي حد العزم ، واري زند الامل ، ثابت عهد النعمة ، ان سلبتني اعزك الله لباس انعامك ، وعطلتني من حلي ايناسك ، واظمأتني الى برود اسعافك ، ونقضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد ان نظر الاعمى الى تأميلي لك . وسمع الاصم ثنائي عليك ، واحس الجماد باسنادي اليك . فلاغرو قد يغص بالماء شاربه و يقتل الدواء المستشفي به ، و بؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

واني لاتجلد ، وأري الشامتين اني لريب الدهر لاأتضعضع «فأقول» هل أنا ألا يد أدماها سوارها . وجبين عض به اكليله . ومشرفي الصقه بالارض صافله . وسمهري عرضه على النار مثقفه . وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس احياناً على من يرحم

هذا العتب محمود عواقبه . وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي . وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع . ولن يرهبني من سيدي ان ابطأ سيبه . او تأخر غير ضنين غناؤه . فأبطأ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدلاء فيضاً املؤها . واثقل السحائب مشياً أحفلها . وانفع الحيا ما صادف جدبا . والذ الشراب ماأصاب غليلا . ومع اليوم غد ، ولكل اجل كتاب ، له الحمد على اهتبـاله . ولا عتب عليه في اغفاله :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فافعاله اللاتي سررن الوف

« واعود فأقول » ما هـذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذي لم يف به احتمالك ، ولا أخلو من ان اكون بريئاً فأين العدل ، او مسيئاً فأين الفضل .

الا يكن ذنب فعدلك واسع اوكان لي ذنب ففضلك اوسع

حنـانيك قد بلغ السيل الزبى . ونالني ماحسبي به وكفى . وماأراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فابيت واستكبرت . وقال لي نوح اركب معنا فقلت سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء الصرح لعلي اطلع الى آله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلي به جيوش طالوت ، وقدت الفيل لابرهة ، وعاهدت قريشاً على مافي الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ، ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة ، وجئت بالإفك على عائشة الصديقة ، وأنفت من إمارة أسامة ، وزعمت ان بيعة ابي بكر كانت فلتة ، ورويت رمحي من كتيبة خالد ، ومزقت الاديم الذي باركت بدالله عليه ، وضحيت بالاشمط الذي عنوان السجود به ، وبذلت لقطام :

ثلاثة آلاف وعبداً وقينة وضرب علي بالحسام المسمم

وكتبت الى عمرو بن سعد ان جمجم بالحسين ، وتمثلت عنـدما بلغني من وقعة الحرة :

ليت أشياخي ببدر علموا جزع الخزرج من وقع الاسل

ورجمت الكعبة ، وصليت العائذ على الثنية — لكان فيما جري علي مايحتمل ان يسمى نكالاً ، و يدعى ولو على المجاز عقابا :

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

فكيف ولاذنب الا نعيمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهازون المشاؤون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون ان يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحا والسعاة الذين ذكرهم الاحنف بن قيس فقال ما ظنك بقوم الصدق محمود الا منهم :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

والله ماغششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت بأساً منك مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك ، فنهم عبث الجفاء باذمتي ، وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ، ولم ضاقت مذاهبي ، واكدت مطالبي ، وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب ، وانى غلبني المغلب ، وتخرعليّ العاجز الضعيف ، ولطمني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل ان أفترس ، وتدركني ولما أمزق ، ام كيف لا تنضرم جوانح الاكفاء حسداً لي على الخصوص بك ، وتنقطع انفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك وقد زانني رسم خدمتك ، وزهاني وسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل في سماطك وقمت المقام المحمود على بساطك :

ألست الموالي فيك غرّ قصائد هي الانجم اقتادت مع الليل انجما

ثناء يظل الروض منه منوراً ضحى ويخال الوشي فيه منمنما

وهل لبس الصباح الا برداً طرزته بفضائلك ، وتقلدت الجوزاء الا عقداً فصلته بمآثرك ، واستملى الربيع الا ثناء ملأته بمحاسنك ، وبث المسك الا حديثاً اذعته في محامدك ، مايوم حليمة بسر ، وان كنت لم اكسك سلباً ، ولاحليتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا ، بل وجدت آجراً وجصاً فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت ، حاش لك ان أعد من العاملة الناصبة ، واكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وتحترق . فلك المثل الاعلى ، وهو بك وبي فيك اولى . ولعمري ان صريح الرأي ان اتحول اذ بلغني الشمس ونبا بي المنزل واصفح عن المطامع التي تقطع اعناق الرجال ، فلا استوطن العجز ، ولا اطمأن الى الغرور . ومن الأمثال المضروبة ، خامري ام عامر ، واني مع المعرفة ان الجلاء سباء والنقلة مثلة :

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم مجراً ومسحبا

وتدفن منه الصالحات وان يسيء يكن ماأسا كالنار في رأس كبكبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عارف ان الادب الوطني لا يخشى فراقه . والخليط لا يتوقع زياله . والنسيب لا يجفى . والجمال لا يخفى . ثم ما قران السعد للكواكب ابهى اثرا . ولا اسنى خطرا . من اقتران غني النفس به . وانتظامها نسقاً معه . فان الجائز لهما . الضارب بسهم فيهما . وقليل ماهم ابنا توجه ورد منهل بر ، وحط في جناب قبول . وضوحك قبل انزال رحلة وأعطي حكم الصبي على اهله :

وقيل له اهلاً وسهلاً ومرحبا فهذا مبيت صالح ومقيل

غير ان الوطن محبوب . والمنشأ مألوف . واللبيب يحن الى وطنه . حنين النجيب الى عطنه . والكريم لا يجفو ارضاً فيها قوابله . ولا ينسى بلداً فيها مراضعه . قال الاول :

احب بلاد الله ما بين منعج الي وسلمى ان يصوب سحابها

بلاد بها عق الشباب تمائمي واول ارض مس جلدي ترابها

هذا الى مغالاتي بعقد جوارك . ومنافستي بلحظة من قربك . واعتقادي ان الطمع في غيرك طبع . والغنى من سواك عنا . والبدل منك اعور . والعوض لفا :

واذا نظرت الى امير زادني ضناً به نظري الى الامراء

وكل الصيد في جوف الفرا ، وفي كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار ، فما هذه البراءة ممن يتولاك ، والميل عمن لا يميل عنك ، وهلا كان هواك فيمن هواه فيك . ورضاك لمن رضاه لك :

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

أعيذك ونفسي من ان اشيم خطّيا ، واستمطر جهاماً ، واكدم غير مكدم ، واشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما ابست لك الالتدر ، وماحركت لك الحوار الا لتحن ، وما نبهتك الا لانام ، وما سريت اليك الا لاحمد السري لديك ، وانك ان شئت عقد امر تيسر ، ومتى اعذرت في فك اسري لم يتعذر . وعلمك محيط بان المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة . وفضل الجاه يعود به صدقة .

واذا امرؤ اهدى اليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

لعلي ان التي العصا بذراك ، و يستقر بي النوى في ظلك ، واستأنف التأدب بادبك والاحتمال على مذهبك ، فلا اوجد للحاسد مجال لحظة ، ولا ادع للقادح مساغ لفظه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والله مبشرك من أطلابي بهذه الطلبة ، واشكاني من هذه الشكوى بصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها احفظ مستودع ، حسبما انت خليق له ، وانا منك حري به ، وذلك بيده وهين عليه ، ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه ، عارضه بالنظم مباهياً ، بل كابده مداهياً ، حين اشفق ان يستعطفك استعطافه وتميل بنفسك الطافه : فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له ، فما زال يستكد الذهن العليل ، والخاطر الكليل ، حتى زف اليك عروساً مجلوة في اثوابها ، منصوصة بحليها وملابها وهي :

الهوى في طلوع تلك النجوم ... والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي ... لو يدوم السرور للمستديم
وطر ماانقضى الى ان تقضى ... زمن ما ذمامه بالذميم
اذ ختام الرضا المسوغ مسك ... ومزاج الوصال من تسنيم
وغريض الدلال غض جنى الصبـ ... ـوة نشوان من سلاف النعيم
طالما نافر الهوى منه غر ... لم يطل عهد جيده بالتميم
زار مستخفياً وهيهات ان يخـ ... ـفي سنا البدر في الظلام البهيم
فوشي الحلي اذ مشي وهفا الطيـ ... ـب الى حسن كاشح بالنسيم
ايها المؤذني بظلم الليالي ... ليس يومي بواجد من ظلوم
قمر الافق اذ تأملت والشمـ ... ـس هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو ... بالمصاب العظيم نحو العظيم
بوأ الله جهوراً شرف السو ... دد في السر واللباب الصميم
واحد سلم الجميع له الاء ... ـر فكان الخصوص وفق العموم
قلد العمر ذا التجارب فيه ... واكتفى جاهل بعلم العليم
خطر يقتضي الكمال بنوعي ... خلُق بارع وخلق وسيم
اسوة الروض من بطيبك يحظي ... نظري ما اعتمدته وشميمي
أيهذا الوزير ها انا اشكو ... والعصا بدء قرعها للحليم
ما عنانا ان يأنف السابق المر ... بط في العتق منه والتطهيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وثواء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتصميم
أفصبر مئين خمس من الايا م ناهيك من عذاب أليم
ومعنى من الضنى بهناة نكأت بالكلوم قرح الكلوم
سقم لا أعاد منه وفي العا ئد انس بني ببرء السقيم
نار بغي سعى الى جنة الاه ن لظاها فاصبحت كالصريم
بابي انت ان تشأنك برداً وسلاماً كنار ابراهيم
للشفيع الثناء والحمد في صو ب الحيا للرياح لا للغيوم
وزعيم بان يذل لي الصعـ ـب مثابي الى الهمام الزعيم
وثناء ارسلته سلوة الظا عن عن شوقه وهو المقيم
وبرداد يغير الدهر ما شا ءَ ويبقى بقاء عهد الكريم
فهو ريحانة الجليس ولا نفـ ـر وفيه مزاج كاس النديم
لم يزل مغضياً على هفوة الجا ني مصيخاً الى اعتذار المليم
ومتى تبدأ النصيحة يولعـ ـك تمام الخصال بالتتميم

هاكها اعزك الله يبسطها الامل ويقبضها الخجل ، لها ذنب التقصير وحرمة الاخلاص ، فهب ذنباً لحرمة واشفع نعمة بنعمة ، لتأتي الاحسان من جهاته وتسلك الفضل من طرقاته .

* * *

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لا ريب ان مكان هذه الرسالة من الادب العربي مكان المشهور المأثور المحفوظ في الصدور المخلد في السطور وذلك لامور :

الاول — انها جراب ادب حاوٍ لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الادب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث والامثال والحكم والابيات المشهورة وحل نظم الكثير منها والاشارة الى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التي يجدر بالاديب معرفتها والاستشهاد بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثاني — حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها في موضوع واحد مما يعسر على غير الحذاق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نمطها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث — حصافة عبارتها وجزالة لفظها في كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنىً وانشاءً .

ولكننا اذا نظرنا اليها بعين الناقد وانعمنا البحث في بلاغتها اي مطابقتها في معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذي وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا انها تقصر دون بلوغه لجملة امور :

الاول — كثرة ما رددته كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه في إقامة دولته مما يعده الرئيس عادةً تعييراً وتجبيهاً .

الثاني - تهديد مولاه بانه لولا حب الوطن لكان له ارفع مقام في خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون الى الترحيب به ، و يتنافسون في استخدام امثاله . .

الثالث — ان وضعها بهذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانجاح الغرض الذي وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بانصرف نفس قارئها عن ان يتأثر ببلاغتها و يشغلها بتذكر الحوادث والقصص التي اتت عليها ، واسماء الناس ، ومضرب الامثال . فلا يفرغ القارئ من تعرّف اسم رجل حتى يقع في مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يقتحم في اوعر منه ، فينقسم فهمه ، و يتشتت تأثره ، وانما يأتي التأثر من انصباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرر العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها اثراً كلياً في النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو . وبمثل ذلك كان الانشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثر ، وصرفه الى تفهم النكت البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى ان رسالة ابن زيدون ليست مثالاً يحتذى للانشاء البليغ المؤثر في النفس .

الرابع — وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدي كاحتياج فقارها الى ذكر فقار بعد تتم معناها وتلتئم بها مع مابعدها (وهذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض اخطاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في المعنى والوقائع (وهذه نشير الى بعضها ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدي) .

فمن هذه قوله (وتأولت في بيعة العقبة) وسياق كلامه في هذا الفصل يقتضي ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو ان يكون مثلهم — ولم ينقل احد من اهل الاثر ان احداً ممن بايع فيها تأولها او نكثها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة » ولم يعلم ان رسول الله انكر على من تخلف عن صلاة العصر في بني قريظة وصلاها في الطريق بل اقرّ الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت ان بيعة ابي بكر كانت فلتة » مع ان قائل هذه الكلمة عمر بن الخطاب ولم يقلها عن ارادة سوء فلا ينبغي ان يتمثل به في اعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت الى عمر بن سعد ان جعجع بالحسين » مع ان المكتوب اليه الحر ابن يزيد التميمي لا عمر بن سعد .

وقد اتى الصفدي على عيوب آتية من تصحيف او سوء تأويل منه هو ، اعرضنا عنها خوف التطويل .

* * *

رسالته الهزلية

كان الوزير ابو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق ان حدثت نبوة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس اليها امرأة من صواحباته تستميلها اليه ، وتذكرها بفضله وادبه ، فردت ولادة المرأة بالخيبة . وكتب ابن زيدون الى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه و يتهكم ويهجوه و يتوعده .

وفي ظننا ان ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأي ولادة ورضاها عما افحش فيها واقذع .

والرسالة كسابقتها في قلة اغراضها وتكرار اساليب فصولها . وذلك انه بدأها بوصف ابن عبدوس باوصاف الحمق والجهلاء منكراً منه ارسال خليلته الى ولادة ، مثنية عليه ومرغبة فيه ، واصفة له باوصاف اعيان الزمان من العلماء والادباء والاطباء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفلاسفة والشجعان من فلان وفلان ، وان ولادة طردتها اشنع طردة . ثم اخذ يهجوه باوصاف في الخلق والخلق ، وان ولادة لو ارادت الرجال لكان لها من الاكفاء من قومها واعيان زمانها من يفضله سنًا وشرفاً وجمالاً الخ .

وهذا نص الرسالة

اما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فان العجب اكذب ، ومعرفة المرء نفسه اصوب ، وانك راسلتني مستهدياً من ضلتي ماصفرت منه ايدي امثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه انوف اشكالك ، مرسلاً خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك انك ستنزل عنها اليّ ، وتخلف بعدها عليّ :

ولست باول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك انها قلتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذ لم تغر عليك ، فانها اعذرت في السفارة لك ، وماقصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروءة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم انت جسمه وهيولاه ، قاطعة انك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت ان يوسف (عليه السلام) حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وان قارون اصاب بعض ماكنزت ، والنطف عثر على فضل ماركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، واردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الابرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وان مالك بن نويرة انما اردف لك ، وعروة بن جعفر انما رحل اليك ، وكليب بن ربيعة انما حمى المرعى بعزتك ، وجساساً انما قتله بانفتك ومهلهلاً انما طلب ثأره بهمتك ، والسموءل انما وفى عن عهدك ، والاحنف انما احتبى في بردتك . وحاتماً انما جاد بوفرك ، ولقي الاضياف ببشرك ، وزيد بن مهلهل انما ركب بفـذبك ، والسليك بن السلكة انما عدا على رجليك . وعامر بن مالك انما لاعب الأسنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيديك · وقيس بن زهير انما استعان بدهائك · واياس بن معاوية انما استضاء بمصباح ذكائك · وسحبان انما تكلم بلسانك · وعمرو بن الاهتم انما سحر ببيانك · وان الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك · والحمالات بين عبس وذبيان أسندت الى كفالتك · وان احتيال هرم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن اشارتك · وجوابه لعمر وقد سأله عن ايهما كان ينفر وقع عن ارادتك · وان الحجاج نقلد ولاية العراق بجدك · وقتيبة فتح ماوراء النهر بسعدك · والمهلب أوهن شوكة الازارقة بيدك · وفرق ذات بينهم بكيدك · وان هرمس اعطى بلينوس مااخذ منك · وافلاطون اورد على ارسطاطاليس ما نقل عنك · وبطليموس سوى الاصطرلاب بتدبيرك · وصور الكرة على تقديرك · وبقراط علم العلل والامراض بلطف حسك · وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك · وكلاهما قلدك في العلاج · وسألك عن المزاج · واستوصفك تركيب الاعضاء واستشارك في الداء والدواء · وانك نهجت لابي معشر طريق القضاء · واظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء · واعطيت النظام اصلاً ادرك به الحقائق · وجعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق · وان صناعة الالحان اختراعك · وتأليف الاوتار والانقار توليدك وابتداعك · وان عبدالحميد بن يحيى باري افلاطك · وسهل بن هارون مدون كلامك · وعمرو بن بحر مستمليك · ومالك بن انس مستفتيك · وانك الذي اقام البراهين · ووضع القوانين · وناظر في الجوهر والعرض · وميز الصحة من المرض · وفك المعمى وفصل بين الاسم والمسمى · وصرف وقسم · وعدل وقوّم · وصنف الاسماء والافعال · وبوب الظرف والحال · وبنى واعرب · ونفى وتعجب · ووصل وقطع · وثنى وجمع · واظهر واضمر واستفهم واخبر · واهمل وقيد · وارسل واسند · وبحث ونظر · وتصفح الاديان · ورجح بين مذهبي ماني وغيلان · واشار بذبح الجعد · وقتل بشار بن برد · وانك لوشئت خرقت العادات · وخالفت المعهودات · فأحلت البحار عذبة · واعدت السلام رطبة · ونقلت غداً فصار امسا · وزدت في العناصر فكانت خمسا · وانك المقول فيه وكل الصيد في جوف الفرا ·

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والمعنيّ بقول ابي تمام :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول ابي الطيب :

ذكر الانام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من ابياتها

فكدمت في غير مكدم . واستسمنت ذا ورم . ونفخت في غير ضرم . ولم تجد لريح مهزا . ولا لشفرة محزا . بل رضيت من الغنيمة بالاياب . وتمنيت الرجوع بخفي حنين . لاني قلت : (لقد هان من بالت عليه الثعالب) وانشدت :

على انها الايام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ونخرت و بسرت . وعبست فكفرت . وابدأت واعدت . وابرقت وارعدت . وهممت ولم افعل وكدت وليتني . ولولا ان للجوار ذمة . وللضيافة حرمة . لكان الجواب في قذال الدمستق . والنعل حاضرة ان عادت العقرب . والعقوبة ممكنة ان اصر المذنب . وهيهات لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك . ملؤها حبيبها . حسن فيها من تود . وكانت انما حلتك بحلاك . ووسمتك بسماك . ولم تعرك شهادة . ولا تكلفت لك زيادة . بل صدقت سن بكرها . فيما ذكرته عنك . ووضعت الهناء مواضع النقب . بما نبته اليك . ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك . فالمعيدي تسمع به خير من ان تراه . هجين القذال . ارعن السبال . طويل العنق والعلاوة . مفرط الحمق والغباوة . جافي الطبع . سيئ الجابة والسمع . بغيض الهيئة . سخيف الذهاب والجيئة . ظاهر الوسواس . منتن الانفاس . كثير المعايب . مشهور المثالب . كلامك تمتمة . وحديثك غمغمة . وبيانك فهفهة . وضحكك قهقهة . ومشيك هرولة . وغناك مسألة . ودينك زندقة . وعلمك مخرقة .

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

حتى ان بافلا موصوف بالبلاغة اذا قرن بك . وهبنقة مستوجب لاسم العقل اذا أضيف اليك . وطويس مأثور عنه يمن الطائر اذا قيس عليك . فجودك عدم . والاغتباط بك ندم . والخيبة منك ظفر . والجنة معك سقر .

كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء . وضعتك لشرفي وفاء . وانى جهلت ان الاشياء انما تنجذب الى اشكالها . والطير انما تقع على آلافها . وهلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان . وشعرت ان المؤمن والكافر لا يتقاربان . وقلت الخبيث والطيب لا يستويان . وتمثلت :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ايها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

وذكرت انى علق لا يبـاع ممن زاد · وطائر لا يصيده من اراد · وغرض لا يرميه الا من اجاد · ما احسبك الا كنت قد تهيأت للتهنئة · وترشحت للترفيـة · ولولا ان جرح العجماء جبار · للقيت من الكواعب ما لاقى يسار · فمامّ الا ببعض مابه همت · ولا تعرض الا لايسر ماله تعرضت ·

اين ادعاؤك رواية الاشعار · وتعاطيك حفظ السير والاخبار · اما ثاب اليك قول الشاعر :

بنو دارم اكفاؤهم آل مسمع وتنكح في اكفائها الحبطات

وهلا عشيت ولم تفتر · وما اشك انك تكون وافد البراجم او ترجع بصحيفة المتلمس · او افعل بك مافعله عقيل بن علفة بالجهني · اذ جاءه خاطباً فدهن استه بزيت وادناه من قربة النمل · ومتى كثر تلاقينا · واتصل ترائينا · فيدعوني اليك مادعا ابنـة الخس الى عبدها من طول السواد · وقرب الوساد · وهلا فقدت الاراقم فأنكح في جنب · اوعضلني همام بن مرة فأقول (زوج من عود خير من قعود) · ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الحطة · ولارضيت بهذه الخطة · فالنار · ولا العار · والمنية · ولا الدنية · والحرة تجوع ولا تأكل بثديها ·

فكيف وفي ابناء قومي منكح وفتيان هزان الطوال الغرانقة

ما كنت لأخطى المسك الى الرماد · ولا امتطي الثور بعد الجواد · فانما يثيم من لم يجد ماء · ويرعى الهشيم · من عدم الجميم · ويركب الصعب من لا ذلول له · ولعلك انما غرك من علمت صبوتي اليه · وشهدت مساعفتي له · من أقمار العصر · وريحان المصر · الذين هم الكواكب علوّ هم · والرياض طيب شيم ·

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

حن قدح ليس منها · ماانت وهم · وانى تقع منهم · وهل انت الا واو عمرو فيهم · وكالوشيظة في العظم بينهم · وان كنت انما بلغت قعرتابوتك · وتجافيت عن بعض قوتك · وعطرت اردانك · وجررت هميانك · واختلت في مشيتك · وحذفت فضول لحيتك · واصلحت شاربك · ومططت حاجبك ورققت خط عذارك · واستأنفت عقد ازارك ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رجاء الاكتنان فيهم . وطمعاً في الاعتداد منهم . فظننت عجزاً . واخطأت اسنك الحفرة .

والله لو كساك محرق البردين . وحلتك ماربة بالقرطين . وقلدك عمرو العمصامة . وحملك الحارث على النعامة . ماشككت فيك ولاستبرت اباك . ولا كنت الاذاك . وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب . وجاريتهم في غاية الظرف والادب . الست تأوي الى بيت فعيدته لكاع . اذ كلهم عزب خالي الذراع . واين من انفرد به ممن لااغاب الا على الاقل الاخس منه . وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة . والنفس المصروفة الي . واللذة الموقوفة علي . وبين آخر قد نضب غديره . ونزحت بيره . وذهب نشاطه . ولم يبق الا ... وهل يجتمع لي فيك الا الحشف وسوء الكيلة . ويقترن علي بك الا الغدة والموت في بيت سلولية .

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال

ما كان اخلقك بان تقدر بذرعك . وتربع بذلك على ظلعك . ولاتكن براقش الدالة على اهلها . وعنزالسوء المستثيرة لحتفها . فماأراك الا سقط بك العشاء على سرحان . وبك لابظبي اعفر . اعذرت ان اغنيت شيا . واسمعت لوناديت حيا .

ان العصا قرعت لذي الحلم والشيء تحقره وقد ينمي

وان بادرت بالندامة . ورجعت على نفسك بالملامة . قد اشتريت العافية لك . بالعافية منك . وان قلت جمجمة ولا طحن . ورب صلف تحت الراعدة وانشدت :

لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظه وان جرحا

فعدت لمانهيت عنه . وراجعت ما استعفيت منه . بعثت من يزعجك الى الخضراء دفعا . ويستحثك نحوها وكزاً وصفعا . فاذا صرت اليها عبث اكاروها بك . وتسلط نواطيرها عليك . فمن قرعة معوجة تقوم في قفاك . ومن فجلة منتنة يرمى بها تحت ... ذلك بما قدمت يداك . لتذوق وبال امرك . وترى ميزان قدرك .

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

« للبحث بقية » احمد الاسكندري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net